جمعيات «الحمير» في بلاد الشام

ما بين الأدب والمجتمع.. من «جمعية فكر» التي أسسها علي الطنطاوي إلى جمعية أبي سيارة

عالم الحمير قد يكون أقرب إلى الخير وأبعد عن الشر من المجتمع الانساني

شمس الدين العجلاني

يعتبر الحمار أقدم أصدقاء الإنسان ولا ينافسه في ذلك سوى الكلب. والحمار أكثر بروزا في التاريخ، وتمثل تصرفات الحمار معظم التراث المرح في مختلف أنحاء العالم. وللحمار قصص في بلاد الشام، ومن هذه القصص جمعيات الحمير في بلاد الشام، ولكن مع الأسف ليس هنالك من معلومات دقيقة حول هذه الجمعيات، ولم يسبق أن كتب حولها، إنما يقع نظرنا على خبر هنا وإشارة هناك إلى مثل هذه الجمعيات في باطن الصحف والمجلات، وفي السيرة الشعبية التي يتناقلها الناس:

الطنطاوي والحمير

وبهذا الصدد يشار إلى أنه كان في سورية جمعية للحمير بقيادة الشيخ الطنطاوي، وكان من شروط الانضمام إليها إحضار صفة حسنة للحمار لم يحضرها شخص آخر وكانت النتيجة اكتشاف أكثر من (١٠٠) صفة حسنة «غير مكررة» لهذا الحيوان غفل الجميع عنها أو لم يفكروا فيها.

جمعية الحمير التي أسسها الشيخ علي الطنطاوي كان من الصعوبة بمكان الانتساب إليها وضمت آنذاك نخبة النخبة في بلاد الشام، وكان يقال إن الانتساب إليها أصعب من الترشح لأي منصب آخر في المؤسسات والجمعيات والنوادي الأخرى، والشيخ الأديب علي الطنطاوي استلهم في كتاباته الرائعة سخريته اللاذعة من مادّة «الحمار»، ففي إحدى جولاته في حديقة الحيوان: رأى الحمير الأهليّة وتساءل- بعد أن صارت الحمير مادّةً للسياحة- عمّا إذا كانت الحمير تغضب حينما تُنادى: يا بشر!، أولسنا نغضب مثلها حينما يقال لنا: يا حمير! فيقول فيها: (زرت الحديقة، ومشيت مع الناس أنظر كما ينظرون إلى أنواع الحيوان، وأرى فيهم أمثالهم، ولكنها قد تلفقت بالثياب... ففيهم حمار له غفلته، وطاووس له خيلته، وذئب له عدوته). ويقف الطنطاوي في مقالته عند كل حيوان في الحديقة ويصفه ويذكر ميزاته إلى أن يقول: (حتى مررت على طائفة من الحمير محشورة في زريبة، طائفة من حمير الشارع تأكل وتهز أذنابها، تتلفت، ترقب العصا تنهال عليها كما يرقب الذليل المهانة، ويعجب إن افتقدها، فلما لم ترها وعرفت أنها في أمان منها بطرت بطر حديث النعمة، وترفعت ترفع اللئيم يسود في غفلة من الدهر، ونسيت ما كانت فيه كما ينسى غني الحرب عهد الفقر، ويأنف من السيارة الفورد وكان لا يجد عربة الكارو، ويدخل أولاده المدارس الأجنبية وكان لا يعرف طريق الكتاب، يستخشن الخز حين يلبسه.. وكان يبري بظفره القلم وفكرت هذه الحمير وقدرت، فانتهى بها التفكير إلى أنها لم تعد حميراً وإنما صارت بشراً، أليس في البشر (حمير)، فلماذا لا يكون في الحمير بشر؟

ومر حمار مسكين، يجر عربة مثقلة بالحشيش لطعام حيوانات الحديقة فنظر إليها فلما رآها.. أجفل وارتد.. ما هذا؟ حمير مثله. إنه يفهم أن يكون في الحديقة نسور وصقور، وفهود ونمور، وزرافات ونعام، وأن يكون فيها حمير الوحش لأنها غريبة المنظر، بعيدة الموطن، نادرة الوجود، أما أن يكون فيها حمير مثله، تسمن وتخدم ولا تعمل، فهذا ما لا يفهمه أبداً. ووقف ونهق لها يحييها، فترفعت عنه وتألمت من تطاوله عليها، ومدت شفاهها الرقيقة، وضمت آذانها القصيرة، ولوحت بأذنابها استنكاراً واستكباراً ونسيت أصلها وتجاهلت أخاها كما يفعل الموظف الصغير الذي يعيش بمال الأمة إذا وقف عليه أحد أبناء الأمة يسأل حاجة، فيظنه يسأل صدقة، أو يطلب إحساناً، أو الشرطي حين يلقى البائع السيار من أهل بلده، وترجمان المستشار حين يقابل واحداً من بني قومه... فلما رأى ذلك منها، بصق ومشى يلعن الحظ الذي جعل الحمير... سادة، وأقام (الناس لهم خدماً وخولا! وبكى على خلائق الجنس (الحماري) لقد ضاعت تلك الخلائق، وهبطنا حتى صرنا مثل بني آدم، لا نعرف أقدار أنفسنا ولا أقدار إخواننا. وجعلت أعاود الحديقة، وأكرر زيارتها، فأرى هذه الحمير محشورة في الزريبة، تأكل وتشرب، وتتعجب لماذا لا يقف عليها أحد! إنها لا تلعب لعب القردة، ولا تغني غناء البلابل، ولا تملك هيبة السبع، ولا ضخامة الفيل، ولكن لها فنها وجمالها، وما الفرق بينها وبين غيرها، ألا يقرأ الناس لأدعياء الرمزية ولصقاء الأدب، ولصوص البيان، كما يقرؤون لأئمة البلاغة، وملوك الكلام؟ ولكن هذه (الفلسفة) لم تقنع أحداً فظل الناس معرضين عنها لا يحفلون بها. وماذا يبتغون بها؟ وهل قلّت الحمير حتى لا تشاهد إلا بقرش صاغ؟ إن الحمار يبقى حماراً ولو وضعته في القصور، وأركبته السيارات، وكسوته الحرير، وأطعمته الفستق المقشر... حتى كان أمس فرأيت القائمين على الحديقة، قد عزموا على إخراج هذه الحمير منها، كي يوفروا على أنفسهم ثمن طعامها، وينتفعوا بجهدها وعملها، ويجملوا الحديقة بإبعادها عنها... فعلمت أن هذه آخرة كل (حمار) يتجاوز قدره، وينسى أصله، فليعتبر سائر الحمير!).

كما كتب الطنطاوي عدة مقالات في الصحف الدمشقية حين كان مستشاراً لمحكمة النقض في النصف الأول من القرن الماضي، تحت عناوين مختلفة يتناول من خلالها جوانب المجتمع المختلفة منتقداً السلبيات بالسخرية اللاذعة مستخدماً الحمار محوراً لذلك، ومن هذه المقالات مقالة بعنوان «يؤمنون بالحمار». وفي كتابه (ذكريات) الجزء الثاني يرى الطنطاوي أن الحيوانات قد تكون أوفى من الإنسان.؟ فيقول: (الإنسان يربي كلباً فيفي له، وحماراً فلا يرفسه، ويطعم القط فلا يعضه... عجباً! أيكون الكلب والحمار والقط والنمر أوفى من الإنسان؟).

الأفغاني والحمير

يقول عاصم بن محمد بهجة البيطار تحت عنوان (الأستاذ المعلم المربي سعيد الأفغاني وحديث الذاكرة): (ومن الطرائف التي ما زلت أذكرها أن الشيخ اقترح في يوم الجمعة على أن يكون الحديث كله شعراً... كما اقترح في يوم آخر أن يؤلف الحضور جمعية دَعوها: جمعية الحمير، وأن يصدروا في كل ما يقولون عن تصوّرهم لطرائق الحمير في التفكير، وقد توصلوا في حوارهم إلى أن عالم الحمير قد يكون أقرب إلى الخير، وأبعد عن الشر من المجتمع الإنساني الذي تقوده الأطماع، ويستعبده المال والجاه والسلطان. وكان أستاذنا الأفغاني أقلّ الحاضرين كلاماً، على أنه لم يكن يفوته النقد اللاذع، أو الملاحظة الموجعة، وكثيراً ما كان يتبادل مع الأستاذ الطنطاوي الحديث الساخن والنقاش الحاد).

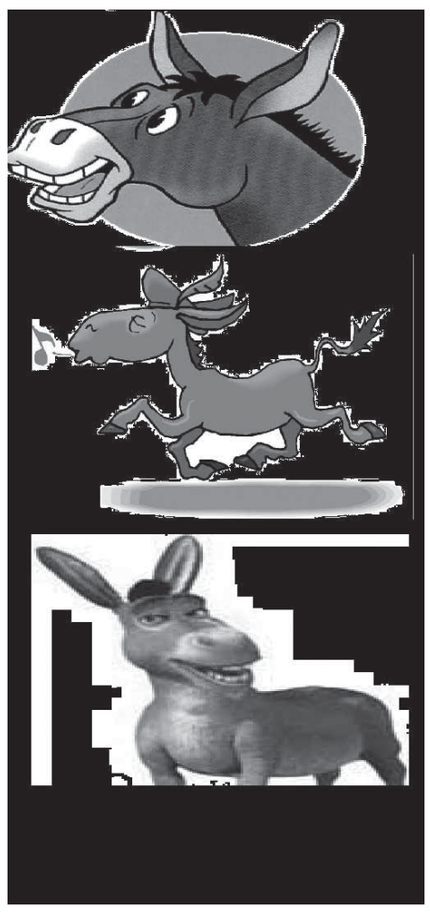

جمعية (حمار أبي سيارة)

وبهذا الصدد نقرأ أنه كان هنالك جمعية بدمشق تضم نخبة مختارة من أعضاء المجمع العلمي العربي وأصدقائهم، تسمى جمعية (حمار أبي سيارة)، وحمار أبي سيارة هذا اكتشف بفطرته أن الحمير قليلة التعرض للأمراض ولديها طاقة كبيرة على تحمل الصعاب والشدائد، فوظف حماره لخدمة الحجيج لسنوات عديدة ولم يمرض يوماً واحداً أو يتأفف من العمل، فكان دائماً صحيح الجسم، وكناية على ذلك كان يقال للإنسان القوي الجسم إن صحته (أصح من حمار أبي سيارة)، ومن هنا اشتق اسم جمعية حمير دمشق.

جمعية حمير القامشلي

كما يشار إلى أن هنالك جمعية للحمير في مدينة القامشلي أسست في بداية السبعينيات من القرن الماضي تحت اسم (جمعية المثقفين الحمير) وكانت تضم مجموعة من الأدباء والمثقفين برئاسة أحمد الحمود، وكانت هذه الجمعية تضم أعضاء من جميع شرائح المجتمع، وكانت فكرة هذه الجمعية تقوم على: (أن على المثقف الإنسان أن يكون شبيهاً بالحمار، فيخدم الناس بكل تواضع، من دون أي تكبُّر، وبذلك يغدو مثقفاً حقيقياً)، حسبما كان يصرح بذلك أعضاء الجمعية.

جمعية حمير عامودا

يقول الباحث خالد العيسى: (أتذكر أن بعضاً من الشباب رأوا أن الكثير من الحمير تترك مشردة في الشوارع، والبرد القارص في فصل الشتاء يشكل خطراً على هذه الحمير، فشكلوا جمعية لحماية حمير عامودا من العذاب والهلاك، واستعاروا بيتاً خالياً ومهجوراً، وبدؤوا بجمع الحمير داخل ذلك البيت، وقاموا بحملة لجمع التبرعات لشراء العلف اللازم. وأنا شخصياً دعمت ذلك المشروع بشكل متواضع، وسهلت إداريا الحصول على العلف. لكن على ما يبدو كان غضب السماء أقوى من رغبة وإمكانيات الطيبين من أهل عامودا، فتحت شدة الأمطار انهار البيت القديم على الحمير، وتحول المشروع الخيري إلى مأساة. وذهب الحمير في طريق اللاعودة، إلى الراحة الأبدية. ورغم النهاية المأساوية لهذه المبادرة، فهي تبقى مليئة بالعبر لمن يريد معرفة سكان عامودا وأطباعهم).

نادي الحمير الآن

لم يعرف نشاط لجمعيات الحمير في سورية برغم القول إنه كان هنالك جمعية معترف بها للحمير كانت موجودة زمن الوحدة مع مصر، وأن الرئيس جمال عبد الناصر استثناها من قرار حل الأحزاب والجمعيات في أثناء قيام الوحدة. ولم تعرف الصحافة السورية منذ الستينيات من القرن الماضي، أي منذ إغلاق صحيفة المضحك المبكي، أي نشاط ملحوظ عن الحمير، اللهم سوى الحديث عن انقراضهم أو سبل استعمالهم التي باتت نادرة... ولكن اللافت للنظر ظهور (هويات) مطبوعة لأعضاء جمعية (الحمير) كان يتبادلها طلاب المدارس والجامعات في السبعينيات من القرن الماضي على سبيل الدعابة والمزاح وكانت تباع في الأسواق.

ويوجد الآن جمعية أو ناد للحمير في سورية لم يتابع نشاطه منذ سنوات عدة بسبب رحيل رئيسهم الفخري الدكتور أميل جبلي. ومنذ عدة سنوات كان هنالك حديث في الشارع السوري حول تأسيس جمعية للمحافظة على الحمير ورعايتها.

جمعية الحمير اللبنانية

أما في لبنان فكان هنالك ناد للحمير في بيروت ضم في عضويته العديد من الأدباء والفنانين، وكان آخر رئيس لهذا النادي الفنان الكوميدي نجا نصار، وكان هنالك تواصل ونشاطات مشتركة مع جمعية الحمير بدمشق، ومن ثم تلاشت النشاطات واللقاءات المشتركة وبقيت في المناسبات فقط.

جمعية الحمير الأردنية

وفي التسعينيات من القرن الماضي تأسست في الأردن جمعية حملت الاسم نفسه «جمعية الحمير» كان مؤسسها وواضع دستورها ونظامها الداخلي الصحفي إبراهيم أبو ناب، وقد أشار بعض أعضائها إلى أهمية الاقتداء بالصفات «الحمورية» للتغلب على جميع العقبات التي تعترض طريق النهوض والتقدم والرقي من صبر وعزم وأخلاقيات عالية ومصداقية ونظافة يد ولسان وفلس ضارب أطنابه من دون أي محاولة لتغيير واقعه عبر بيع النفس في سوق الكتابة والصحافة.. على سبيل المثال. فللحمير أسرارها ولها صفاتها التي يعجز الكثير من الناس عن التطاول عليها.. ناهيك عن استعدادها للاكتفاء بوجبة غذائية من نوع واحد مدى الحياة. ألا وهي (التبن) وعن هذه الجمعية يقول إبراهيم المبيضين: (وفي التسعينيات تأسست في الأردن جمعية حملت الاسم نفسه «جمعية الحمير» كان حمارها الأكبر ومؤسسها وواضع دستورها ونظامها الداخلي المرحوم إبراهيم أبو ناب.. وكنت أحد أعضائها بدرجة: حمار.. علما أن أصناف العضوية ودرجاتها كان تضم: الجحش، والحمار، والحمار الكبير، ثم تلك المرتبة المبجلة والوقورة: الحمار الأكبر..).

ويتابع القول في رسالة بعث بها لأحد أصدقائه: (ولو علمت يا عزيزي عن مبادئنا في تلك الجمعية، لسارعت بالانضمام إليها، ولربما كنا قَبِلنا بك حماراً عزيزاً مبجلاً.. لأنها كانت - أي المبادئ - تشتمل على كل ما تبحث عنه عبثا ولا تجده إلا قليلا لدى البشر من صبر وعزم وأخلاقيات عالية ومصداقية ونظافة يد ولسان وفلس ضارب أطنابه بلا أي محاولة منا لتغيير واقعه عبر بيع النفس في سوق الكتابة والصحافة..).

جمعية الحمير الفلسطينية

يحدثنا وليد رباح في صحيفة الصباح الفلسطينية الصادرة يوم ٩-٩-٢٠٠٨م عن جمعية الحمير الفلسطينية فيقول: تشكلت في مدينة القدس المحتلة جمعية للحمير تحت اسم (جمعية التيوس الفلسطينية) في خمسينيات القرن الماضي.. وكان جل أعضائها من الحكومة التي شكلت في الأردن يوم كانت وحدة الضفتين.. أما بقية الأعضاء فكانوا من علية القوم: أطباء وصيادلة وأدباء ووزراء (وزير الصحة ووزير الداخلية والمالية) وكان رئيس جمعية التيوس هو رئيس الوزراء في ذاك الزمان.. وله مكتب في مدينة القدس، وكان يضع إلى جانب طاولته شوالين أحدهما مملوء بالشعير والآخر مملوء بـ(الكرسنه) ويشترط في من ينتمي للجمعية أن (يلهف) حفنة مما يحويه الكيسان.. ثم يبدأ بالمأمأة والنحنحة والحبو على قدميه ويديه حتى يقتنع رئيس الجمعية أنه أصبح (تيسا).. ثم من بعد ذلك يكتب إقرارا بأن لا يفشي سر الجمعية.. وإلا فإن مرتبته بين التيوس سوف تنخفض إلى (معزة).

أما النساء فلم يكن في تلك الجمعية أعضاء منهن سوى واحدة انتقلت إلى رحمة ربها في الثمانينيات من القرن الماضي.. ولقد احتار الرئيس والأعضاء في قبولها عضواً في الجمعية وكيف ستحبو على قدميها ويديها بعد أن أكلت حفنة من الشعير وأخرى من الكرسنة.. فتقرر بالإجماع إعفاؤها من الحبو حتى لا تبين عورتها للأعضاء.. إذ لم يكن البنطلون للأنثى قد اخترع بعد.. فالتيس مذكر كما نعلم.. ولقد اقترح بعض الأعضاء أن يسموها (تيسة) ولكنهم لم يجد في قواميس اللغة معنى لهذا الاسم.. واقترح الرئيس تسميتها (التيس الجميل) رغم بلوغها الخمسين في ذلك الوقت.. ولكن ذلك أيضاً كان نشازا.. فالتيس لا جمال ولا كمال ولا سحنة نظيفة له.. وأخيراً استقر الرأي على تسميتها (التيس المخنث). وفي عام ٢٠٠٧ نشطت في فلسطين جمعية أوروبية للاهتمام بالحمير وكان مجال عملها في قرى الضفة الغربية في مجال الرعاية والتثقيف للمواطنين في التعامل مع الحمير، وكانوا يقومون بزيارات ميدانية للقرى والتجمعات الريفية في الضفة، ويدعون الأهالي ممن لديهم حمير لجلبها وفحصها وتقديم العلاج لها إن احتاجت، وقامت الجمعية بتوزيع كتيبات ونشرات تثقيفية عن الحمير وكيفية رعايتها.

شعر ونثر فقط!

د. راتب سكر

أصبح الشاعر مسعود الفائز مديراً لمؤسسة أدبية تضم مجموعة من الشعراء، وتعنى بنشر القصائد ونقد الشعر، بعد إقرار خطة عملية في هذا المضمار، تُقرّ بعد تداولها في اجتماعات المؤسسة.

جلس على الكرسي الدوار بعد دقائق من تسلمه مهمته، وأعلن خطة النشر التي أخرجها من جيب عريض داخل معطفه، معلناً أن هذه الخطة تخرج من معطفه، كما خرجت القصة الروسية من معطف غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢)، بناء على قول فيدور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١) الشهير: «خرجنا جميعاً من معطف غوغول».

أسهب في الحديث عن غوغول ودوستويفسكي، ولم ينس الإشارة- التي ساقه إليها التداعي الحر- إلى معاصريهما الفرنسيين: أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠)، وإميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢)، ولما شعر بعض الحاضرين أن وقت الاجتماع شارف على الانتهاء، ما يعني إقرار الخطة من دون مناقشتها مناقشة مناسبة، رفع أحدهم يده طالباً حقه في الكلام، فتم تجاهله، غير أن هذا التجاهل زاد من رغبته في الكلام، فوجدته في هذه الحال يصرخ معبراً عن رفض خطة النشر جملة وتفصيلاً، تعبيراً متأثراً بحالة غضبية امتلكته، لم يستطع منها فكاكاً.

علا صوت الغضب في مناقشة خطة النشر، التي انتهت بإقرار تعديلات مأمولة، وودع كل من المتناقشين صاحبه مؤكداً أن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

مرت الأشهر التالية قاسية على صديقي أمس، فقد دبّر كل منهما لصاحبه مكيدة طويلة عريضة قادرة على إفساد قضايا الود، وقضايا أمه وأبيه، وجعل عظامه رميماً. حاول سعاة الخير إصلاح ذات البين، غير أن سعاة آخرين قطعوا عليهم الطرق بأسلاك مجدولة من معادن شتى، فاستخدم كل ساعٍ ما راق له من مخلفات المعامل والخردة في الرد والأخذ، حتى هيمن نسيان خطة النشر ومؤسستها الأدبية، وارتفع الاهتمام بالكيد والوعيد.

وصل خبر استعداد عدد من المؤسسات الثقافية لنشاط واسع يستمر عامين، بدءاً من عام ٢٠١٦، يعنى بشعر وليم شكسبير ومسرحه، بمناسبة الاحتفاء بمرور أربعمئة سنة على رحيله عام ١٦١٦. تذكر الزملاء ما جرى قبل مئة سنة عام ١٩١٦، عندما احتفي بمرور ثلاثمئة سنة على رحيل شكسبير، متوقفين على دلالات قصيدتي أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر الشعب حافظ إبراهيم بتلك المناسبة المهمة، فتزاحمت فكر ثقافية متنوعة لتعزيز المشاركات في الاحتفاء الجديد، وراقت الفكرة للجميع، وفي خضم مناقشتها غسل العتب ما علق في القلوب من الشجن، على دروب الشعر والنثر، ما جعل أديباً قديماً يعلق قائلاً، هازاً رأسه: «ليت حياتي من شعر ونثر فقط».

ظواهر الاتساع وأثرها في ضبط القاعدة النحوية

د. سناء ناهض الريس: سعة اللغة العربية تأتت من خصائص وسمات جعلتها حيّة مطواعة.. بعيدة عن الجمود

سوسن صيداوي

«إنّ كلام العرب لا يحيط به إلا نبيّ» هذه العبارة قالها قائل للدلالة على أن اللغة العربية واسعة، رحبة المذاهب، فسيحة السبل، فالعربية لغة عريقة، ضاربة في القدم، سايرت تاريخ أهلها الطويل، وشهدت نهضتهم وازدهار حضارتهم واختلاطهم بأمم الأرض، فلم تضق يوماً عن استيعاب مراميهم، أو تتقاصر عن الوفاء بأغراضهم. وسعة العربية إنما تأتت لها من خصائص وسمات كامنة فيها، جعلتها حيّة مطواعة، قادرة على التجدد، بعيدة عن الجمود.

والبحث في طرف من هذه الخصائص هو موضوع هذه الدراسة التي عقدت لدراسة ظاهرة الاتساع في العربية من وجهة نظر النحويين، هذه الدراسة بقلم الدكتورة سناء ناهض الريس وحملت عنوان «ظواهر الاتساع وأثرها في ضبط القاعدة النحوية»، وصدرت بكتاب عن وزارة الثقافة / الهيئة العامة السورية للكتاب.

أسباب البحث

الأسباب التي حدت بالدكتورة سناء الريس لاختيار هذا البحث، منها أن لظاهرة الاتساع أهمية كبرى، ففيها تتجلى شجاعة العربية التي تتيح للمتكلم بها ضروباً من التصرف والعدول عن الأصل، وتضعه أمام طائفة غير قليلة من الجوازات التي تعينه على صون لغته عن أن تظل حبيسة قوالب مألوفة مكررة، وقد تهدّى ابن جني إلى هذه الحقيقة فقال: «كلام العرب كثير الانحرافات، ولطيف المقاصد والجهات، وأعذب ما فيه تلفّته وتثنّيه». كما تضيف المؤلفة في مقدمة الكتاب «ولم تحظ هذه الظاهرة، على أهميتها، بدراسة دقيقة تقوم على تتبّع المفهوم وبيان المراد منه، والكشف عن مناهج العرب في التوسّع والتفسّح، والأغراض التي تدفعهم إلى سلوك هذا السبيل، والضوابط التي التزموها وراعوها عند تجوّزهم. ومنها: إن النحو العربي رُمي من قبل بعض الدارسين بالجمود وتسليط القواعد على اللغة ومستخدميها، وتغليب المعيارية على حرية المتكلم».

صعوبات البحث

الصعوبات التي اكتنفت البحث أبرزها غياب جد واضح للنُحاة للاتساع في كلامهم، فعلى كثرة دور هذا المصطلح ووفرة أمثلته لم يكد أحد منهم يضع تعريفاً جامعاً له، وإنما هي إشارات وشواهد متناثرة في الأبواب النحوية المختلفة، يجمع بينها سبب خفي، يتطلّب استجلاؤه استقراء النصوص وتتبّعها وضم النظائر لتبيّن المفهوم الذي صدروا عنه في وصف الكلام بأنه جار على التوسع، هذا وما أضافته المؤلفة في بحثها «وقد اقترن الاتساع في كلامهم بمصطلحات ذات دلالات عديدة، فهو تارة قرين المجاز، وتارة أخرى ضرب من الحذف والإيجاز والاختصار، وهو قرين الضرورة أحياناً، ووجه من وجوه الشذوذ في بعض المواضع. ومن ثم كان لابد من النظر في هذه المصطلحات، والبحث فيما يؤلف بينها ويجمعها تحت مسمّى الاتساع. فالاتساع مسمّى عام تندرج فيه ظواهر لغوية عديدة كالحذف والمجاز، والزيادة، والحمل، والتعاقب، والتقديم والتأخير، ولكل مما سلف صور لا تكاد تحصى كثرة، منها المطرد المقيس، ومنها الكثير، ومنها المختص بالضرورة أو الشذوذ. لهذا عمدت الدراسة إلى جمع النصوص النحوية المتصلة بهذه الظاهرة من مصنفات أصحابها وتحليلها، وتتبّعت نشأة المصطلح منذ ظهوره في كلام المتقدمين وانتهاء بالمتأخرين الذين لم يخرجوا عما اختطه الأئمة في هذا الباب إلا في القليل، واستخلصت من كلامهم الظواهر اللغوية التي تؤول إلى باب الاتساع، وبحثت في أغراضها معرّجة على كلام البلاغيين الذين أبانوا فيه عمّا يكتسبه الكلام من مزية وفضل بالعدول به عن أصله، وإخراجه عن مقتضى الظاهر، وتناولت ضوابط الاتساع المبثوثة في كلامهم، وسعت إلى تلمّس أثره في بناء القاعدة النحوية».

> الاتساع مسمّى عام تندرج فيه ظواهر لغوية عديدة منها الحذف والمجاز.. الزيادة والحمل.. التقديم والتأخير

أبواب البحث

طبيعة البحث الذي قدمته الدكتورة سناء ناهض الريس اقتضت أن يُجعل في بابين، أفرد أولهما لدراسة مفهوم الاتساع وأغراضه وضوابطه، وخلُص الثاني لظواهر الاتساع وأثرها في بناء القاعدة النحوية.

بني الباب الأول على فصلين، تناولت المؤلفة في الفصل الأول مفهوم الاتساع من وجهة نظر النحويين، حيث اعتبرت أن له مدلولين «فقد يعنون به ضرباً من العدول عن الأصل يقوم على التجوز والمسامحة، استباحته العرب في مواضع من كلامها رغبة منها في أن توسع سبل القول وطرائق التعبير عن معانيها، وعلى هذا المفهوم اقتصر سيبويه والمتقدمون من النُحاة حتى نهاية القرن الثالث. وقد يقصد به ما تتسم به بعض الألفاظ والتراكيب من سعة في التصرف، تتأتى لها تبعاً لاعتبارات، أبرزها أصالتها في بابها وكثرة استعمالها، وهذا المفهوم ظهر في كلامهم في القرن الرابع، إلى جانب المفهوم السابق. أما في الفصل الثاني فبني على مبحثين، تناول الأول أغراض الاتساع، وهي أغراض لفظية تتمثل في السعي لتكثير اللغة تارة، وطلب الإيجاز والاختصار تارة أخرى، وأغراض معنوية أبرزها إظهار المبالغة والتعبير عن العناية والاهتمام. متناولاً ضوابط الاتساع العامة التي تشترك فيها ظواهره جميعا، فبيّن أن العرب لا تجنح إلى الاتساع إلا إذا أمنت اللبس، وأنها منعت الاتساع في غير المتمكن، ولم تحز في كلامها الجمع بين اتساعين».

أما الباب الثاني من هذه الدراسة فجاء شاملاً لأبرز ظواهر الاتساع، حيث جعلت المؤلفة ذلك في خمسة فصول، حرصت في أثنائها على بيان صلة ما كانت تعرض له بالاتساع ووجه خروجه عن الأصل، معتمدة في ذلك على أقوال النحويين، باسطة القول في جانب واسع من الصور المختلفة لهذه الظواهر الاتساعية، مميزة، ما أمكن، منها في الاستعمال وإنقاص واقتصرت الشذوذ، وبينت في خاتمة كل فصل الضوابط الخاصة التي تقيد بها الظاهرة الاتساعية التي عرضت لها فيه. وأتبعت الفصول الخمسة بسادس تلمست فيه أثر ظواهر الاتساع في بناء القاعدة النحوية، والذي هو منوط بمدى ما اكتسبته نماذج الاتساع من اطراد، رقي الاستعمال بطرف منها إلى منزلة المقيس، فأُلحق بالقاعدة النحوية وصار جزءاً من بنيانها، أما فيما اختصّ بلغة الشعر من صور الاتساع فقد أقيم عليه باب الضرائر، في حين استُبعدت النماذج التي وقعت في الاختيار ولم تعضد بسماع واسع من بناء القاعدة واكتفى النُحاة بالنص عليها، مع التنبيه على أنها من الشاذ الذي يُحفظ ولا يقاس عليه.